

تأملات في الإيمان

- ١ . الإيمان : نظرة عامة
- ٢ . بناء الإيمان وموارده
- ٣ . الإيمان بين الفطرة والمسؤولية
- ٤ . تشغيل الإيمان
- ٥ . الصلاة
- ٦ . الصوم
- ٧ . رحلة الحج
- ٨ . الذكر
- ٩ . زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

الإيمان: نظرة عامة

1

الإيمان: نظرة عامة

عند تدبر سلوكنا الاجتماعي ومنظومة القيم التي تحكم تفكيرنا تتضح لك إحدى أهم المشكلات التي تواجهنا اليوم على مستوى الفرد والجماعة والوطن والأمة هي مشكلة ترتيب الأولويات، ويظهر ذلك بجلاء في الخطاب الديني، وفي السلوك الاجتماعي، وفي القرارات الإدارية، وفي إنفاق الموارد على جميع المستويات.

ومن أبسط الأمثلة على ذلك فوضى الإنفاق عند الأفراد، فقد تمر بسيارتك على أحد المحالّ، وتشتري لأطفالك مثلجات بخمسين ريالاً دون مناقشة، ثم تمر على صيدلية لتشتري لهم فرش أسنان، وتبحث عن أرخص الأنواع، وتجادل في سعر بضاعة مسؤولة عن صحة فم الإنسان وأسنانه ولثته، وقد تنفق في مناسبة عابرة لا داعي لها ألفي ريال، وتنام طول عمرك على مرتبة رخيصة الثمن تسبب لك تشوهات في الظهر وآلاماً في المفاصل.

وفي الجانب الديني، وهو الأهم نعاني كثيراً من هذه المسألة، بل أحياناً يرفض بعض الوعاظ مبدأ الأولويات من أساسه على الرغم من إيمانهم بوجود الفرض والواجب والسنة ووجود آيات أولى من آيات في سياقات معينة، وأنبياء أفضل من أنبياء، وهذا الموقف ينطلق من باب أن ليس في الدين قشور ولب، ويتتهي الأمر إلى أفئدة محشوة بالمتون وشروح المتون وبتفاصيل التفاصيل، ونشرات تلاحق الإنسان في كل مكان، تفصّل حالات سجود السهو، وتحليق الأصابع، والافتراش في التشهد، وأنواع الإسهال مع الوسائل الإيضاحية بالصور عند أبواب المساجد والمكاتب.

وعندما نذكر ذلك، فغني عن القول: إن على كل مسلم واجباً بأن يحترم السنة المطهرة قولاً وفعلاً وتقريراً، ولكن - وهنا تكمن المشكلة - لا بد من أن نعرف أن في أذهاننا فراغاً محسوباً وحيزاً محدوداً إذا عظمنا عنده الصغائر والتفاصيل، فلن يتوافر فيه مكان للإدراك التلقائي^(١) للمقاصد الكبرى للدين.

إن المعيشة الواعية للسيرة النبوية في عهدنا المكي والمدني، مدرسة مستمرة لترتيب الأولويات. تأملوا نهي الرسول ﷺ عن كتابة الحديث النبوي، وعنايته العظيمة ﷺ بكتابة القرآن العظيم وحفظه بوصفه مؤشراً واضحاً على ترتيب الأولويات بين النص القرآني والحديث النبوي.

المحزن أننا لم نستطع فهم هذا التمييز العظيم بين القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل إن الدارس في كتب الأصول يعجب لطريقة استنباط الأحكام وقواعدها، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تقرير أن السنة قاضية على القرآن، بل إن بعض أصحاب النيات الحسنة، يستعملون مصطلحاً بدعيّاً، وذلك بالتعبير عن القرآن والسنة بـ (الوحيين)، وهو في نظري تطرف جاء رد فعل على القرآنيين الذين يزعمون كفاية النص القرآني، لكن عندما يرد نص قرآني قاطع في أمر من الأمور، فإن من الداعي للتساؤل لجوء بعض الفقهاء إلى تفریغه من معناه مستنديين على بعض الأحاديث، متوسلين بتخصيص العام وتقييد المطلق، وما سواهما من قواعد وضعية.

وأوضح مثال على ذلك أننا نقرأ في القرآن العظيم هذا التوجيه الرباني قطعي الثبوت وقطعي الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ومع ذلك مازال بعض المسلمين يقرأ الفاتحة، والإمام يقرأ في الصلاة الجهرية، استناداً إلى فتوى تحيل إلى حديث نبوي، ألا يحتاج هذا الأمر إلى إعادة نظر!؟

(١) نقصد به الإدراك اللاواعي بحسب تقسيم علماء النفس الذين قسموا عملية التعلم إلى أربع مراتب، هي: اللاشعور وعدم القدرة، ثم الشعور مع عدم القدرة، ثم الشعور والقدرة، ثم أعلى المراتب اللاشعور مع القدرة.

وتذكر هنا أن الرسول ﷺ لم يكن يشجع على الأسئلة التفصيلية وكثرة الاستفتاءات، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»، ويكفي أن نعلم إن الاستفتاء (يَسْتَفْتُونَكَ) والسؤال بعمومه (يَسْأَلُونَكَ) قد ورد في القرآن الحكيم فقط في آيات محدودة لا تتجاوز خمس عشرة آية. يقول الدكتور خالد السلطان، مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

«إن كثرة الأسئلة والاستفسارات تؤثر في قدرة عقل الإنسان على فهم التصور العام للشيء، نتيجة الانغماس في التفاصيل. وإن الإسراف في السؤال يكرس ثقافة التبعية، ويؤثر في سلم الأولويات».

ولعل كثيراً منا قد لاحظ أن بعض الشباب المبالغ في التفاصيل فقد الإحساس بالمقاصد العظمى للدين، وتاريخنا الماضي والحاضر مليء بالأمثلة.

وعندما نبحث هذا الأمر سنجد أن الخلل في ترتيب الأولويات عندنا يتضح في أجلى صوره في قضية الإيمان، فهذه القضية الأساس الكبرى لم تنل ما تستحقه في خطابنا الديني ومناهجنا المدرسية وتربيتنا، ومن ثم لم تأخذ مكانها في منظومة القيم، ولم تظهر على السلوك، ومن ثم لم نستفد من مردودها العظيم، وسُغَلنا عنها في الجانب التعليمي ما يسمى مباحث العقيدة، حيث انشغل علماء العقيدة في التاريخ الإسلامي وبالذات المدافعين عما يعتقدونه التصور السليم للذات الإلهية، وأنفقوا جهودهم ووقتهم في جدل لا ينتهي مع من يسمونهم «الفرق الضالة» (يلاحظ هنا أن كل فرقة تعتقد أنها على الحق، وأن غيرها فرق ضالة قليلاً أو كثيراً).

ولأن مصادر الإنسان من وقت وجهد وقدرات عقلية محدودة، فقد قلّ إنتاجهم الفكري جداً في موضوع الأثر الذي يجب أن يحدثه الإيمان في الإنسان.

ومثال بسيط على ذلك أنه يعلم كل مطلع على كتب العقائد حجم الجدول الطويل الرهيب حول تأويل الصفات، حيث قسم الأمة، واستنزف طاقات العلماء، وشحن النفوس دون الوصول إلى نتيجة.

هل استفادت الأمة خلال قرون طويلة ومجلدات هائلة من هذا الجدول، أعتقد أن الجواب على النقيض، بل تشرذمت، وشحنت النفوس، وضاع الجهد، وفقد الطرفان التركيز على الغاية.

فإن كانت إحدى عجائزنا لا تستطيع أن تتصور أي شيء فوق المادة نهائياً وفهمت العلو والعرش والاستواء واليد والعين بما يستطيع إدراكها فهمه، ولكن إيمانها هذا يمنعها عن ارتكاب المحرمات، ويساعدها على فعل المندوبات، والالتزام بأهداب الشريعة، ويمنحها توكلاً، ويعطيها سكيناً وهدوءاً عند المصائب والأقدار، فهل من المفيد أن نتجادل مع هذه العجوز عن مسائل طبيعة الوجود وتوحيد الأسماء والصفات؟ وفي المقابل إن كان أحد المفكرين أو علماء الفلك ينزه المولى - عز وجل - عن أي تجسيم أو تشبيه حتى في اللفظ، ويعرف أن الاتجاهات في الكون ليس لها معنى إطلاقاً، فالإصبع التي تشير إلى الأعلى في الرياض تشير إلى عكس الاتجاه في جنوب البرازيل، وثلث الليل الأخير مستمر لا ينقطع، فهو يحتاج إلى التأويل؛ ليحقق التوافق بين عقله وإيمانه، ولكن إيمانه بالله - عز وجل - بهذه الصورة أحدث المطلوب من تعظيم الرب ومحبة رسوله وفعل المأمورات وترك المحرمات وتقوى الله والجهاد في سبيله، فهل نقاتله على هذا التصور؟

عند استعراض أدبيات العقيدة في التراث الإسلامي، وحتى في المؤلفات الجديدة يحزن الإنسان كثيراً أن الأمة انشغلت عن الغاية بالوسيلة، وجعلت محل الخلاف طاغياً على محل الاتفاق.

نعود إلى قضيتنا الأساس، وهي بناء الإيمان الذي هو أولى أولويات الإنسان وسفينة نجاته، إن بناء الإيمان يشبه بناء منزل وسكناته وصيانته في هذه الحياة، وعلى قدر عزيمة الإنسان وعلى قدر جهاده سيحدد نوع المنزل الذي يسكنه، إن بإمكان المؤمن أن يعيش سعادة لا تتحقق لأي ساكن قصر على وجه الأرض، أمان ورضا واستقبال للأحداث والطوارئ بنفس رضية مستقرة ومواءمة مع الكون والنفس.

في تصوري أن من يعيش على هذه الأرض دون إيمان أشبه بمن يعيش دون منزل على المستوى المادي. تخيل إنساناً دون مأوى، لا بيت ولا كوخ، ولا حتى خيمة، وليس في منطقة خالية من البشر، بل هو في وسط الناس، أي حياة ستكون من نصيبه؟ برد ومطر أو حر وشمس وغبار ووحشة وابتذال... إلخ، لا أعتقد أن بالإمكان تصور مثل هذه الحياة.

قد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يساعد على بناء الإيمان وصيانته وعلى أقل تقدير، فحسبي أن يذكره بأهمية الموضوع، فيشرع يستخدم ما أعطاه الله من آيات وموارد (كون - عقل - وحي.. إلخ) في بناء إيمانه بشكل راسخ وصيانته على الدوام؛ حتى يستمتع بثمراته اليبانة.

تأمل:

تدبروا قول الرب - عز وجل - في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

إذن المؤمن الحق هو مجموعة أعمال، وليس تصوراً مجرداً.

بناء الإيمان وموارده

٢

بناء الإيمان وموارده

تاريخ البشرية يظهر أن الإيمان بالخالق الملك المدبر الحي القيوم فطرة مغروسة في كل كائن بشري، فإنكار وجود الرب - عز وجل - هو الاستثناء في السلوك البشري، بل احتاج ذلك إلى مكابدة كبيرة من أهل الإلحاد وعناء ما بعده عناء، ولم تفلح حتى محاولات الإلحاد (الرسمي) التي تدعمها الدولة (كما في تجربة الاتحاد السوفيتي) في تحقيق أي نجاح لمشروع إنكار وجود الله، والمثير للبحث أن مسألة وجود الرب - عز وجل - لم تكن قضية القرآن الكبرى، بل يؤكد القرآن أن هذه القضية لم تكن موضع الخلاف الأهم بين البشر.

وفي اعتقادي أن هناك ثلاثة موارد رئيسة يستخدمها أي إنسان لبناء إيمانه، هي:

أ- الكون. ب- العقل. ج- الوحي.

ولكل واحد منها وظيفة محددة، ولا يستطيع أحدها أن يؤدي دوره دون الآخر، فإذا تلقى الوحي إنسان دون عقل فلا فائدة ترجى، والكون والعقل دون وحي قد يقودان إلى حياة بدائية مليئة بالخرافة، والوحي والعقل يحتاجان إلى ميدان "الكون" لاستنباط البراهين والممارسة العملية، وقد تكفل الوحي بتعريف البشر على الاسم الذي يدعون به هذا الرب الخالق وهو (الله) في الدين الخاتم، ومن ثم تعريفهم بأسمائه الحسنی وصفاته العلا؛ حتى يتمكنوا من تحقيق عبوديته في هذه الحياة، والعقل هو مناط التكليف والآلة التي يستخدمها الإنسان للاختيار بين البدائل، ويوفر الكون لمن تدبره أدلة لا حصر لها، تتضافر لتشهد على وجود خالق مدبر حي قيوم وعلى كمال شريعته وتحقيقها لمصالح البشرية العليا.

■ ٢-١ الكون

يبدو أن مظاهر الكون من حول الإنسان من لحظة وجوده على كوكب الأرض قد شغلت تفكيره، واستفرت تأمله الطويل. فنظام الكون الذي نستطيع مشاهدته يدعو إلى الإعجاب الكبير والدهشة العظيمة، وقد بدأت التأملات البشرية للكون في وقت ما قبل الحضارة، وتدلل عليها الرسوم والنقوش القديمة التي اكتشفت في السنوات الأخيرة، ولكن أول ما وصلنا مكتوباً عن هذه التأملات الجادة كان التراث اليوناني، ويعتقد أن «بطليموس»، هو أول من وضع تصوراً مكتوباً عن نظام الكون أودعه في كتابه «المجسطي» الذي يحمل اسمه العربي إلى اليوم، وفي عالم بطليموس تكون الأرض هي مركز الكون، والشمس والقمر والنجوم تدور حولها، وتعزز المشاهدة اليومية هذا التصور، ومن ثم فقد ظل مهيمناً على التفكير البشري قرابة ألفي عام يدعمه اعتقاد خاطئ من الكنيسة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون، وخلاف ذلك هو كفر وهرطقة.

ثم تسلّمت الحضارة العربية والإسلامية القيادة العلمية للعالم، ووفرت قاعدة عظيمة من التأملات والبحوث التي أعانت أوروبا على نهضتها الحديثة.

ومن داخل المؤسسة الكنسية نفسها ظهر البولندي «كوبرنيكوس» في القرن الخامس عشر ليقرب هذا المفهوم رأساً على عقب، ويفترض نظاماً تكون الشمس فيه هي المركز والأرض تدور حولها مع بقية الكواكب.

تسبب هذا الطرح في صراع رهيب في أوروبا، ولكنه كان إحدى الشرارات التي أشعلت النهضة الأوروبية الحديثة، ليس فقط في أثره الفلكي، وإنما في أثره الفلسفي العميق، فكان هذا التصور الجديد يقول: إن اعتقاد الناس الطويل بأمر ما، ودلائل الحواس المباشرة لا يعني بالضرورة موافقة الحقيقة.

وتوالت الأرصاد والحسابات التي تؤيد تصور كوبرنيكوس، ومنها ترسخ فكر جديد يدعو إلى الثبوت من المسلمات الوثوقية التي ربما تكون أبعد شيء عن الحقيقة.

وبعد ذلك بعقود قليلة وبالعقلية نفسها فاجأ «جاليليو» إيطاليا وأوروبا كلها بتصور جديد عن الحركة والسكون، فقد ظل العالم ألفي عام أسيراً لنظرة أرسطو التي كانت تقول: إن الأجسام تبقى ساكنة حتى تأتي قوة تؤثر فيها (تحركها)، وهي فكرة يدعمها الحس المباشر، وكانت هيبية أرسطو تمنع من توجيه النقد له، وهذه الهيبية لم تكن في أوروبا وحدها، بل كانت في العالم الإسلامي بشكل أكبر، فقد كان يسمى في المشرق الإسلامي المعلم الأول، أما في الحضارة الأندلسية، فقد قال فيه الفقيه والفيلسوف ابن رشد الحفيد كلاماً ينجل المرء من إيراده.

وفجأة قلب جاليليو الطاولة على أرسطو وبضربة عبقرية غير جاليليو عبارة أرسطو إلى الآتي:

(تبقى الأجسام على حالها متحركة بانتظام أو ساكنة، حتى تأتي قوة تؤثر فيها) وعندما سأله المدهوشون من هذه الفكرة: (ما الذي يحرك الساكن؟ أجاب ما الذي يوقفه؟!).

قد يجد بعضنا صعوبة في إدراك الفرق بين عبارتي أرسطو وجاليليو، ولكن مؤرخي العلوم يعدّون التصور الجديد للحركة والسكون من أهم مسيبات وثبة العلم الحديث.

دعم جاليليو نظريته، ببحوث، وتجارب كثيرة، ويوم وفاته ولد في إنجلترا، «إسحاق نيوتن» (١٦٤٢ م) لترجم فكر جاليليو بعبقرية فذة بما يسمى قوانين الحركة

التي تفسر نظام الحركة في الكون، وقد تنبأ بمواقع الكواكب وسرعاتها، واستطاع أن يحسب مواقع سقوط القذائف وحركة المركبات، وصاغ المعادلات الرياضية لهذه الحركة.

وقبل وفاة نيوتن بدأت تتوالى الدراسات والبحوث التي تشكك في تصوره لعلاقات الأجسام في الكون ودقة المعادلات، وخصوصاً من كل من «بيركلي» و«لينز» وهو في السبعين من عمره، فكتب هذا المقطع في نهاية كتابه العظيم (المبادئ):

(يتمجد اسم الله الأعظم الأبدي ذو البهاء المطلق، هو الأبدي اللانهائي القادر على كل شيء، العالم بكل شيء يصل وجوده الأبد بالأبد، وبقاؤه يدوم من العدم إلى العدم، حاكم على كل شيء، عالم بكل شيء كان أو سيكون هو ليس أبدياً، وغير محدود، بل هو الأبدية واللاحدود، وهو ليس البقاء والوجود، بل هو الحاضر، وكل زمان، الباقي إلى الأبد، الحاضر في كل مكان وبوجوده الدائم في كل مكان ينشأ الزمان والمكان... الله لا يكتثر بحركة الأجسام، فلا تجد مقاومة من قدرة الله الحاضر في كل شيء).

هذه إذاً النتيجة التي وصل إليها إسحاق نيوتن أحد أعظم علماء الطبيعة على مر القرون، عندما شارفت حياته على النهاية، ووصلت حكيمته وخبرته إلى أقصى مداها ونضجها.

توالى الضربات على نظرية نيوتن عن الحركة والجاذبية، وبخاصة بحوث الكهرومغناطيسية التي أبدعها فراادي وماكسويل، ولم تستطع النظرية تفسير بعض الظواهر الحاسمة في الطبيعة.

وانطلاقاً من إيمان عميق بجمال الكون قاد «آينشتاين» العلماء إلى النسبية الخاصة ثم العامة، ويصعب على أي إنسان غير متخصص أن يفهم أسرار النظريتين، ولكنه يمكن صياغة الرؤية الفلسفية لهما بأن العلاقة بين الأجزاء في الكون ليست علاقة قوة كما تصورهما فيزياء نيوتن، وإنما تصميم هندسي فائق الجمال في أبعاد الزمكان (الزمان - المكان) وأن الزمان والمكان ليسا مطلقين، وإنما يعتمدان على موقع الراصد (نسيان) وأن المادة والطاقة ليسا سوى وجهين لعملة واحدة. المهم أن تصميم الكون بدأ يظهر بشكل أجمَل وأبسط مما كان عليه في عالم نيوتن.

والداعي للتأمل أنه بعد بحوث آينشتاين وعلماء عصره يمكن أن نرى أن الفارق بين عالمي بطليموس وكوبرنيكوس هو فرق في الاصطلاح، فالحركة المطلقة غير قابلة للرصد في هذا الكون ولا فرق حقيقي بين أن تقول: إن الكوكب «أ» يدور حول الكوكب «ب» أو العكس.

ومن المتوقع أن يظهر علماء يضيفون إلى نظرية آينشتاين، أو يعدلون أجزاء منها، أو ينسفون فرضياتها «وقد حدث ذلك فعلاً» ويطرحون تصوراً جديداً، يفسر الكون بطريقة أبسط وأفضل وأنفع.

إذاً، فالكون مخلوق من مدبر أعلى قادر حكيم حي قيوم، حارت العقول في كشف أسرار بديع صنعه، غير أنها تصل إلى نتيجة حاسمة هي الإيمان بوجوده وحكمته عز وجل. عندما نتحدث عن بناء الإيمان عن طريق تدبر الكون، فإن المثال الأعلى والقدوة لكل إنسان على هذه الأرض هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

يقص علينا القرآن العظيم طريقة إبراهيم في معرفة ربه بتدبره للكون من حوله. وسواء كان هذا التدبر على سبيل المحاجة والإيضاح لقومه أم كان على سبيل البحث عن الحقيقة، فقد توصل عليه السلام (أو أثبت) نتيجة قطعية هي أن ما يغيب (أو يأفل) بحسب التعبير القرآني لا يستحق أن يكون إلهاً.

وبذلك، فإن الخليل عليه السلام هو أبو المؤمنين في كل زمان ومكان، حيث حنف أي مال عن الشرك إلى الإيمان والتوحيد، ونقل التصور البشري للإله من التشخيص إلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

تأمل، يمتدح القرآن الكريم حنيفة إبراهيم عليه السلام، ويصفه بأنه كان حنيفاً، وأصل الحنف هو حذب الساق، ألاثير الدهشة أن علماء الفيزياء الآن وبفتح من آيتشتاين قد وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن الكون كله أحذب. إلى أين يقود هذا الحذب؟

■ ٢-٢ العقل

سئل أعرابي: بِمَ عرفت ربك؟

فقال: بنقضه للعزائم.

لاحظ هذا الأعرابي بفطرته السليمة أن عزائم الخلق تجتمع على أمر ما، ولا يستطيعون إدراكه، بحيث تنقض عزائمهم، فاستنتج عقله وجود إرادة عليا وقوة عظمى مهيمنة على إرادة الخلق.

وقد تضافرت شواهد العلم الحديث على أدلة لا تنتهي (باستخدام العقل والكون) على وجود الرب العظيم - عز وجل -، وهناك قائمة طويلة من الكتب هذا هدفها، يمكن لمن يرون تدعيم إيمانه أن يستفيد منها.

إن إنكار وجود الله يتطلب هوى غالباً، ويضرب د. علي عزت بيجوفيتش مثلاً على ذلك، فيقول:

«إن علماء الآثار عندما يعثرون على تحفة فنية مضمورة تبدأ أسئلتهم عن العصر الذي عملت فيه، ومن أبداعها، وكيف حفظت إلى هذا التاريخ، إلى آخر هذه الأسئلة، أما عندما يعثر على جمجمة بشرية بديعة الصنع هائلة الأسرار، فإن الإجابة تأتي هكذا: «إن الطبيعة خلقتها» ثم يتساءل رحمه الله: أليس في إنكار الإنسان لوجود الله هوى بين؟!».

ومثله ذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - إلى ضرب المثل بالمصباح الكهربائي، إذ يقول:

«إن الناس تحفظ اسم مخترع المصباح الكهربائي وصانعه الأول، وتقيم له التكريم تلو التكريم، أما الشمس التي تشرق على كل الكون لتنيره دون حاجة إلى صيانة أو تبديل، فنادرًا ما نتفكر في مبدعها عزوجل».

جفري لانغ:

يتبع المغلوب دين الغالب، هذه فكرة أثارها ابن خلدون، وقد تأتي بصيغة أعم بأن المغلوب يتبع ثقافة الغالب، ومنذ خمسة قرون وكفة الصراع على هذه الأرض تميل لمصلحة الغرب المادي النصراني، ومنذ قرن انتصر الغرب انتصاراً حاسماً، وهيمن على مجريات الحياة بشكل قد لا يكون مسبوقاً، أما في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد انفرد تماماً بقيادة البشرية.

وأما المسلمون فهم الآن في تخلف رهيب في جميع مناحي حياتهم السياسية والاقتصادية والعلمية، بل حتى في منظومة القيم الجمعية، غير أن المتأمل لحال التحول في الأديان يدهشه هذا الكم الكبير من أعلام الغرب وبسطائهم الذين يشهرون إسلامهم. وقد اخترت مثلاً واحداً هو الدكتور جفري لانغ الأمريكي الأصل والولادة والمنشأ، وهو ليس حالة فردية، بل تيار عام لا تنقطع روافده.

وقد ألف الدكتور جفري لانغ كتاباً يستعرض فيه طريقه إلى الإسلام أسماه (struggling to surrender) ترجمه الدكتور منذر العبسي تحت عنوان: «الصراع من أجل الإيمان»، وقد يكون العنوان الأقرب إلى الترجمة الصحيحة هو: «الصراع من أجل التسليم»، ولا يخفى على من يعرف اللغة الإنجليزية جمال العنوان الذي ينم ظاهره عن التناقض، فكيف يصارع الإنسان من أجل أن يستسلم؟

والدكتور جفري لانغ أستاذ الرياضيات بذل مجهوداً كبيراً في البحث عن الحقيقة، حتى قرر اعتناق الإسلام، ويقول عن القرآن الذي كان السبب في إسلامه ما نصه:

«القرآن في رأي كثير من المسلمين واجه تحدي الغرب، وارتفع فوقه وإن القرآن هو القوة الدافعة وراء الصحوة الإسلامية العالمية، ولا يزال القرآن نحو بليون مؤمن هو البيان الأمثل لفضل الله على البشر والحكمة العليا وجمال التعبير الأسمى».

ثم يستشهد بكلمة لمحمد أسد، وهو كما تعلمون مسلم نمساوي تحول عن اليهودية إلى الإسلام:

«إنه كلمة الله».

من أجل ما في كتاب الدكتور جفري لانغ شجاعته في مواجهة شبهات تُثار عن حياة الرسول ﷺ وعن الحديث النبوي وعن المرأة في الإسلام، بمعنى أن إسلامه لم يكن بادي رأي، بل عن تروٍّ ودراسة.

وأمثال الدكتور جفري لانغ كثيرون جداً، بل إن موكب مؤمني الغرب لم ينقطع على الرغم من حملات التشويه التي يقودها متعصبون، وما يلقونه من دعم من الجهات ذات المصالح الاقتصادية والسياسية، يعضد لها آلة إعلامية رهيبه مؤثرة، إضافة إلى ما يوفره جهلة المسلمين وغلانهم من فرص للنيل من هذا الدين والتشكيك فيه.

حتى رحلة الحج في صورته الراهنة، كما يعلم أي إنسان أدى مناسك الحج مليئة بالصعوبات التي ستفتح أبواب الشيطان أمام أي مسلم جديد، ولكننا نجد أن مسلمي الغرب رجالاً ونساءً يرجعون من حجهم أقوى إيماناً وأشد تسليماً، من جراء تعاملهم الفكري المعمق مع أسرار الحج وغاياته.

إن مسألة تحول غربيين كثير إلى الدين الإسلامي مسألة جذيرة بالتبصر، فهذا الدين ليس عادة شرقية أو نادياً للمتعة أو رياضة روحية، فالاستحقاقات المترتبة على اعتناقه كبيرة جداً، بل تنطوي على تغيير شامل في حياة الإنسان، وتعيد ترتيب أولوياته وإدارة وقته، وتعيد تنظيم علاقاته، وتتطلب هذه الخطوة الكبرى (اعتناق الدين الإسلامي) تضحيات جسيمة لا يقدم عليها إلا من عرف الحق، وإلا فإننا نعلم جميعاً أن العالم الغربي يبحث كثيراً عن أديان الشعوب الأخرى ومعتقداتها، ونسمع عن بعض من أصبح بوذياً أو كنفوشيوسياً أو غيره.

يتساءل برنارد لويس، وهو أحد أكبر المستشرقين في هذا القرن مقررًا أن شيئاً ما في الثقافة الإسلامية يغرس في نفوس معتنقي الإسلام اعتزازاً وثقةً بالتفوق على الآخرين، وقد أصاب هنا كبد الحقيقة، غير أنه يحار في الأسباب، ونحن نعتقد أن سبب هذا الشعور هو موافقة الحق والفطرة؛ لأنه لا يوجد أي شيء آخر يبعث على الاستعلاء بحدوده المقبولة مثل اتباع الحق بدعم من الفطرة.

ديكارت:

يعتقد مالك بن نبي المفكر الجزائري أن ديكارت هو أحد أكبر مؤسسي الفكر الأوروبي الحديث، وهناك شبه إجماع على أن مكانة ديكارت بوصفه مؤسساً للعقل الأوروبي أو أحد رواد تشكيل العقلية الأوروبية الحديثة لا يعدلها مكانة، وقد شغل ديكارت نفسه في بداية حياته بقانون الشك، إذ بدأ شكاً في وجوده، ثم نهج طريقاً رياضياً ليثبت أنه موجود، وأطلق عبارته المدوية:

«أنا أفكر إذاً أنا موجود».

التي غالباً ما تفهم خطأً، بأن التفكير هو غاية الوجود، في حين مقصود ديكارت هو أن التفكير برهان على الوجود، وبعد أن أثبت وجود نفسه، وأن وجوده حقيقة، وليس وهماً انطلق إلى إثبات وجود الله -عز وجل- وبدأ يبرهن على ذلك براهين متعددة في كتابه مبادئ الفلسفة، وهذه البراهين تركز في معظمها على فكرة واجب

الوجود المشهورة عند المتكلمين الإسلاميين، غير أن ديكارت قد أورد عدداً كبيراً من البراهين على وجود الرب -عز وجل- وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن فلسفة ديكارت، وفي سلسلة نوابغ الفكر الغربي ألف الدكتور «نجيب بلدي» كتاباً عن ديكارت نشرته دار المعارف بمصر.

ومن ثم، فإن كل الطرق التي سلكتها البشرية، سواء بالفطرة المباشرة أو العقلية العلمية أو التأملات الصوفية أو التبصر الفلسفي قد أدت بالجميع إلى نتيجة واحدة، وهي وجود الرب -عز وجل- الحي القيوم ذي الكمال المطلق.

النية:

تتوارث الثقافات البشرية مسلّمة تقول:

إن أصحاب النيات الحسنة ينجحون في الوصول إلى أهدافهم، هذه المسلّمة لم تأت من فراغ، وإنما أصّلتها ممارسة وتجارب وشواهد كثيرة، ولو كانت حكرأ على ثقافة معينة أو شعب بعينه لقلنا: قد تكون وهماً، لكنها قاسم مشترك بين شعوب الأرض، وما من كتاب يتحدث عن تطوير الذات إلا يعرج على أهمية صلاح النية. وهل ينجح ذوو النيات الحسنة لأن هناك انسجاماً بين ما يظهر وونه وبرامجهم الذهنية؟ هذا ممكن!

ولكنه يمكن الاستفادة من هذه الحقيقة (التي أصبحت مسلّمة لدى شعوب الأرض) في تعزيز الإيمان بالله -عز وجل-.

إن النية قد تكون أحد مصادر تعزيز الإيمان، تدبر هذه الحقيقة، يستثمر شخصان المصادر نفسها (مواهب، مال، جهد) للوصول إلى نتائج معينة يوفق أحدهما بشكل كبير، ويخفق الآخر، والفرق بينهما كان في النيات فقط، ألا يدل هذا على وجود فاعل أعظم، عليم خبير؟

إن تدبر أثر النية لا يقود فقط إلى بذل الجهد في إصلاحها، وإنما أيضاً يعزز الإيمان.

■ ٢-٣ القرآن

القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يمكن للعقل البشري استخدامه لبناء مشروع إيمانه وصيانه، وهذه أمثلة لبعض التأملات الجديرة بالتدبر:

• إجماع حول القرآن:

في أمة تختلف على كل شيء، وخصوصاً في أمور الدين! كيف تم الاتفاق على هذا الكتاب من أوله إلى آخره بنفس ترتيب السور، وترتيب الآيات؟ ألا يثير ذلك دهشتنا؟ إن أي مسلم يؤدي الصلاة في أي مسجد أو بقعة من بقاع المعمورة إسلامية كانت أو غير إسلامية يقرأ هذا الكتاب، ولا يجد فيه ما يزيد أو ينقص عما يقرؤه أي مسلم آخر في أي مكان كان. إن أي متأمل في هذه الحقيقة الكبرى ستملكه حيرة عظيمة، خصوصاً في أمة أمية كالأمة العربية لم يتوافر لديها صناعة إنتاج الكتب أو السجلات، ولكن جواب الدهشة، والخيرة يأتي من القرآن نفسه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سبحانه الله العظيم، حيث استخدم صحابة رسول الله ﷺ لهذه المهمة، والله غالب على أمره، ولعل السنة النبوية في اختلاف رواياتها وانتشار الوضع فيها واختلاف الفرق الإسلامية حولها ما يؤكد تميز القرآن وحده بالحفظ الإلهي. وبالمناسبة، فإن الحديث عن وجود مصاحف أخرى عند بعض الفرق الإسلامية مختلفة عن المصحف الذي بين أيدينا الآن هو محض افتراء لا أساس له من الصحة، ويوجد متطرفون عند كل الفرق يدعون أن الفرقة الأخرى تزعم وجود نقص أو زيادة في القرآن، بمعنى أن فكرة وجود مصحف مختلف اخترعت للنبيل من الآخر، وليس لدعوى امتلاك الحقيقة.

• هامان:

نقرأ في القرآن عن رجل يسمى «هامان» ويظهر من القصص القرآني أنه كان أحد مساعدي فرعون مصر في أثناء بعثة موسى عليه السلام، وحتى نصل إلى سبب إدراجه ضمن سياق هذا الكتاب دعونا نستعرض بعض الحقائق:

أولاً: لم يرد ذكر لهامان في أي كتاب سهاوي أو أثر تاريخي معروف.

ثانياً: اللغة الهير وغليفية ظلت طلاس مجهولة، حتى القرن التاسع عشر عندما تمكن عالم المصريات الفرنسي «شامبليون» من فك رموزها عند عثوره على ما يسمى حجر رشيد، وهو حجر يحمل نصين: الأعلى منها مكتوب باللغة اليونانية وتحتة ترجمة باللغة الهير وغليفية (الحجر الأصلي محفوظ بالمتحف البريطاني، وشاهدت نسخة منه في المتحف المصري) وبمقابلة النصين وإجراء دراسات معمقة على الآثار المصرية تمكن شامبليون من تطوير ما يمكن تسميته أبجدية هير وغليفية، ساعدت علماء المصريات على بناء سجل تاريخي دقيق للأسر الفرعونية الحاكمة، ووجدوا التشكيلات الإدارية لكل حاكم فرعوني، وعند تفحص التشكيل الوزاري لفرعون مصر في أثناء البعثة الموسوية ظهر لهم اسم هامان وزيراً للقلاع والإنشاءات، وقد ذكر الله العظيم: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَكْهَمَنُّ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ فمن أعلم محمداً عليه السلام باسم هامان ووظيفته، التفكير المنطقي السديد يقود قطعاً إلى الإجابة التي تنصر الإيمان بالله، وتدعم أركانه.

• مراد هوفمان:

مراد هوفمان المسلم الألماني الذي كان دبلوماسياً لألمانيا في الثمانينيات في المغرب العربي أثارت دهشته قدرة المسلمين من غير العرب على حفظ

القرآن، أليس محققاً في ذلك؟ تصور أنك تقرأ كتاباً من ست مئة صفحة بلغة غريبة، أي صعوبة تقف أمامك؟ فكيف بحفظ ما قرأت؟ الأمر قريب من المستحيل. أما في الحالة القرآنية فآلاف مؤلفة من المسلمين من الفرس والهنود والملايو والبربر والقبائل الإفريقية يحفظونه عن ظهر قلب دون أن يستطيعوا قراءة سطر واحد من كتاب آخر في اللغة العربية، ألا يثير هذا الأمر دهشة العقول؟! ويعمق الإيمان، الوعد المكتوب في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا أَلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

• موريس بوكاي:

أنجز هذا الطبيب الفرنسي رحلة شاقة من البحث العلمي الرصين في الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

قارن من خلالها نصوص هذه الكتب المتعلقة بتاريخ الكون والإنسان والأحداث التاريخية المهمة، وبعد رحلة علمية رائعة اتضح لهذا الباحث الفرق الجوهرية بين القرآن العظيم المحفوظ من التدخل البشري والكتب السماوية الأخرى التي لم تتشرف بالحفظ الإلهي لحكمة أرادها منزلها عز وجل. يختم هذا العالم بحثه الشائق بخاتمة جميلة اخترت للقارئ الكريم نهايتها:

«لا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث

إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي، عقيمة حقاً المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

خاتمة جميلة لكتاب رائع وبحث علمي رصين من عقلية فلسفية اشتغلت خارج الإطار الإسلامي، ولكن المنهجية العلمية المتسمة بقدر عالٍ من التجرد والموضوعية قادتته إلى تلك النتيجة الباهرة.

• الإعجاز العلمي:

وقع هذا الموضوع ضحية لطرفين: إما مغالين، يتعسفون كل حقيقة علمية؛ ليبحثوا لها عن أصل في القرآن، وجفاة لا يقبلون بحث هذا الموضوع مطلقاً، ولكن المتأمل قد يجد طريقاً في الوسط، حيث تواجهه آيات واضحة عن نظريات علمية أصبحت في حكم الحقائق، والآيات دلالاتها قاطعة، وفي اعتقادي أن أوضح مثال على ذلك هو أطوار خلق الإنسان التي تتكرر الإشارة إليها في آيات كثيرة وبشكل متسق على الترتيب الآتي:

طين ← نطفة ← علقة ← مضغة
عظام ← لحم ← خلقاً آخر

وهذه هي المراحل التي أوجدها البحث العلمي الراهن، بل أصبحت بحكم الحقائق، تأتي في القرآن أول مرة في التاريخ البشري، وكشفها علمياً لم يتحقق إلا في القرن العشرين، هذه واحدة من حالات متعددة تقوم الآن هيئة علمية مستقلة بالتحقق منها ونشرها.

وفي رأبي أنه يجب التعامل مع هذه الأمور بحذر شديد؛ حتى لا نندفع خلف تنظير علمي نضعه حقيقة لا يرقى إليها شك، ونتعسف تفسير آية؛ لتماشى معها، ثم يثبت فيما بعد خلاف النظرية، مع أن القرآن العظيم ليس في الواقع في حاجة إلى مثل هذه الاستدلالات، فهو مطلق وغير مفتقر إلى البرهنة.

القرآن والنقد:

كثيراً ما نسمع أن قداسة القرآن في نفوس المؤمنين به تمنعهم من نقده وملاحظة تاريخيته وتناقضاته على حد تعبيرهم، الجزء الأول من هذه العبارة صحيح، فللقرآن في نفوس المؤمنين به قداسة لاتعادلها قداسة، أما النقد والتحليل فقد تصدت له مجموعة من المستشرقين وغيرهم، واستثمروا جهوداً غير عادية، فما النتيجة التي خرجوا بها؟

لن أستتفز وقت القارئ أو أجرح ذائقته في استعراض بعض مقولاتهم، وإنما سأكتفي بعبارة للمفكر المغربي المشهور الدكتور «محمد عابد الجابري»، وهو من تعلمون موسوعيته واطلاعه على مثل تلك الجهود، وقد نشر هذه المقالة في مجلة المجلة في العدد ١٤٦٢ و تاريخ ١٧-٢٣/٢/٢٠٠٨م بعنوان: (القرآن والنقد) وهذا نص العبارة:

«حاول بعض المستشرقين العثور في القرآن على ما يشبه المعطيات والمتغيرات التي جعلت النقد التاريخي لكل من التوراة والإنجيل مبرراً، بل ضرورياً، فلم يخرجوا بنتيجة تذكر».

■ ٢-٤ الرسول

شخصية الرسول ﷺ أحد أهم مصادر الإيمان بالله - عز وجل - ورسالة الإسلام الخالدة الخاتمة.

فحياته الكريمة معين لا ينضب للبراهين على صدق بلاغه، وفي كتب السير ما يغني عن أي استطراد هنا، وقد تسببت بعض الأحداث في حياته ﷺ وحتى زمننا هذا في إسلام كثير من الناس، نتذكر هنا تلك المستشرقة التي قرأت أن الرسول ﷺ عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أمضى بقية حياته الشريفة دون أي نوع من الحراسة، وهو حق، فلم يكن هناك حراسة على حجرات الرسول ﷺ في المدينة، فكان أن استنتجت أنه يمكن للإنسان أن يكذب على كل الناس إلا على نفسه ما يقطع بصدق رسالته، تذكروا أن حياة الرسول ﷺ لم يكن بها أسرار إطلاقاً، فقد نقلت لنا تفاصيل التفاصيل عن حياته الشريفة، وهناك ملمح جميل سمعته من الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - عن مفكر هندي يقول:

« إن أكثر ما أثار دهشته هو سيرة الرسول ﷺ في سكنه في حجرات بالمسجد يمر عليه الناس خمس مرات في اليوم والليلة على الأقل، فالزعماء والأغنياء في هذه الأرض يحرصون على أن يكون لهم قصور بعيدة عن العمران تتوافر فيها الخصوصية؛ حتى يستمتع بملذات الدنيا بعيداً عن الناس، وهو أمر درجت عليه الأمم في ماضيها وحاضرها.»

نتذكر هنا أن البيوت الملاصقة للمساجد في أحيائنا الآن تقل أسعارها أليس كذلك!؟

كثير من شأنه ﷺ قد استغلوا سيرته للنيل من صدق رسالته، وقد قرأت، وتدبرت كثيراً من الكتابات عن هذا الأمر، وهي تركز على الغزوات وقتل رجال بني قريظة والسبي والغنائم وتعدد الزوجات، وخصوصاً الزواج من عائشة رضي الله عنها في سن مبكرة، أو الزواج من زينب رضي الله عنها.

سأطرح على القارئ الكريم ثلاثة تفسيرات محتملة لهذه المواقف:

التفسير الأول:

أن المنتقد (الشانئ) يقرأ أحداث ما قبل ألف وأربع مئة سنة، بعقلية اليوم وشرائحه وأعرافه، والمنطق الحديث والفكر والفلسفة الغربية الآن تركز على تاريخية الأحداث والتصرفات، وضرورة إسقاطها على عصرها، وقراءتها في سياقها الزمني، غير أنهم ينسون أو يتناسون هذا الأمر عند دراستهم سيرة رسول الإسلام ﷺ.

التفسير الثاني:

يقرأ الغربيون سيرة الرسول ﷺ وفي مرجعيتهم الفكرية صورة ذهنية عن سيرة المسيح ﷺ (الحقيقية أو الميثولوجية) والمعلوم أن المسيح ﷺ جاء لغاية محددة وهدف واضح هو تصحيح الانحراف في بني إسرائيل، وجاءت ولادته ﷺ صدمة روحية هائلة في مجتمع غرق في ماديته، حتى حولوا المعبد إلى مغارة لصوص بحسب النص الإنجيلي، ولا بد أن يوضح المدافعون عن سيرة نبي الإسلام ﷺ أن حياته ورسالته تختلف تماماً عن رسالة أخيه المسيح ﷺ فقد جاء محمد بن عبدالله ﷺ ليختم رسالات السماء، وليطرح مثلاً للكمال البشري في جميع مناحي الحياة.

ما الفائدة لو جاء الرسول الخاتم، ولم يقاتل، ولم تكن له رغبة في النساء (مثل يحيى أو المسيح عليهما السلام) فلم يتزوج، ولم يطلق؟! كيف تستفيد البشرية منه بوصفه قدوة؟
جاء محمد ﷺ ليكون «دراما بشرية متكاملة»، حزن وسرور، ربح وخسارة، حصار وحرب، زواج وطلاق، قضاء ودهاء سياسي، خطط حربية، نصر وهزيمة، أصحاب أوفياء وقرابة وآل، وشائون محاربون ومانفون، خريطة متكاملة لحياة الإنسان على هذه الأرض.

كثير من الكتابات الغربية الناقدة تغيب هذه المسألة المهمة، وتفترض أن يكون النبي مسالماً دفاعياً فقط مثلاً للأخلاق السلبية متنازلاً عن كل حقوقه.

التفسير الثالث:

كثير من الغربيين فلاسفة ومفكرين قديماً وحديثاً لم يغفروا لأمتنا فوزها بالاختيار لحمل رسالة الله الأخيرة لبني الإنسان، فلم يتحملوا وصول هذا الشرف لأمة أمية تعيش في الصحراء.

الدارس لموقف الغرب النصراني من الدين الإسلامي في أول لحظات الالتحام يلاحظ موقفاً شديد العدائية من قبل رجالات الدين على وجه الخصوص، وفي نظري إن أحد أهم الاعتداءات التي تمت على الحقيقة في التاريخ البشري حدثت عندما ترجم القساوسة في أوروبا لفظ الجلالة «الله» كما ينطق في اللغة العربية «Allah»، ثم راحوا يوهمون دهاء أوروبا بأن المسلمين «العرب» يعبدون إلهاً اسمه الله غير رب موسى وعيسى عليهما السلام، ومعلوم أن السواد الأعظم من جيوش الأوربيين في الحملات الصليبية تم تهيئتها؛ لتخليص الأماكن المقدسة من الكفار الوثنيين، الذين هم بالطبع العرب المسلمون، وهذا لا يعني استبعاداً أو التقليل من تأثير الأبعاد الاقتصادية والسياسية في تلك الحملات الصليبية البربرية.

وإحدى أهم ظواهر هذه العدائية تغييب الإرث المحمدي، بل الثقافة العربية والإسلامية عن الاستشهاد بها أو الاستفادة من حكمها عبر التاريخ، إن جميع كتب تطوير الذات وعلم النفس تستشهد بالحكمة الإنسانية من الشرق والغرب، فتجد في أي كتاب من كتب تطوير الذات في المكتبة الغربية أقوالاً لبوذا وكنفوشيوس وزرادشت، بل حتى إنه يتم الاستشهاد ببعض تراث القبائل الإفريقية، غير أنك لا تكاد تجد أي استشهاد بالمرورث العربي والإسلامي، لا من القرآن الكريم، ولا من الحديث النبوي، ولا من حكماء المسلمين، وكأن هناك تحسناً مفرطاً وتغيباً تاماً لهذا الموروث.

وعلى الرغم من كل هذا، فهناك كثير من نصارى أوروبا والشرق من أهل الإنصاف والعدل الذين قالوا كلمة الحق في نبينا محمد ﷺ وقد أنجزت بعض البحوث والكتب التي توثق شهاداتهم في حق المصطفى ﷺ.

يقول «مايكل هارت»:

«إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمر وأبرز في كلا المستويين الديني والديني. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والديني معاً يحوله أن يُعدّ أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية».

محمد الرسول ومحمد الإنسان:

روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصباح والمساء: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم،

حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين»، هذا واحد من مجموعة من الأحاديث التي يسهل فهمها عندما نفترض أن النبي محمد ﷺ يتصرف، ويتحدث أحياناً بوصفه محمد الإنسان، وحينها يشهد في بعض الأحيان لمحمد النبي بالرسالة، ويخبر صحابته بأنهم أعلم بأمور دنياهم، ويغير موقعه في مواجهة بدر بناء على مشورة.

ربما يؤدي التمييز بين محمد الإنسان ومحمد النبي ﷺ إلى بعض القراءات الجديدة لسيرته ﷺ وعلاقته بأل بيته وصحابته.

الإيمان بين الفطرة
والمسؤولية

ع

الإيمان بين الفطرة والمسؤولية

الإيمان فطرة مغروسة في كل إنسان تحتاج إلى عقل وتدبر في النفس والكون، ثم تكفل الوحي بتجليتها وتثبيتها وإيضاح مطلوباتها وثمراتها.

فهو إذاً مسؤولية كبرى فردية خالصة لكل عاقل مكلف، غير أن الرب - عز وجل - قد وضع في كل إنسان خميرة الإيمان عند خلقه، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، تأمل قول الرب عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۗ﴾. وتقوم هذه الخميرة التي تشبه البادي في صناعة الأطعمة، بدور الخميرة الإيانية القابلة للنمو، ولا يستبعد أن يكتشف العلماء لاحقاً شيئاً يشبه الجينات الإيانية في التركيبات البيولوجية للإنسان.

إن بناء الإيمان مسؤولية فردية لا يجوز فيها التقليد ولا التبعية، فعلى كل إنسان عاقل مكلف أن يتدبر في نفسه والكون من حوله، ويستقبل رسالة محمد ﷺ حالما تصله لبناء إيمانه.

إن بناء الإيمان عملية مستمرة، فليست المسألة قراراً يتخذ أو مهمة تنجز، بل حياة تعاش.

إن البناء الإياني يتعرض باستمرار لمحاولات التخريب والتقويض، ويتطلب حراسة وحذراً وصيانة مستمرة، والجميل في الأمر أنه كلما زاد الإيمان زادت الحصانة، وقل الجهد المبذول للصيانة والحراسة، ويزودنا الإيمان الإسلامي

بألية مهمة لزيادة الإيمان، وهي الأعمال الصالحة، حيث إن المزيد من الأعمال الصالحة يقوي الإيمان، والعكس هنا صحيح.

يلاحظ القارئ أن الحديث عن بناء الإيمان هنا قد دمج بين الإيمان بوجود الرب - عز وجل - ووحدانيته والإيمان برسالة محمد ﷺ ولعل المفهومين منذ بعث محمد ﷺ لا ينفكان، فقد أصبح من المتعذر النظر إلى إنسان غير مصدق برسالة محمد ﷺ بصفته إنساناً مؤمناً، وقد حفلت الكتب بمحاولة معرفة الفروق بين الإيمان والإسلام، ويعُد الكثير أن حديث جبريل عليه السلام فيصل في هذا الباب، في حين يرى البعض أن الإيمان والإسلام مفهومان إن اجتماعاً افتراقاً، وإن افتراقاً اجتماعاً، وقد حاول محمد شحرور في مشروعه المعروف أن يضع تمييزاً بين الإسلام والإيمان، غير أن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، وما يعتقد كاتب هذه السطور هو أن: الشهادتين غير قابلتين للتجزئة.

تشغيل الإيمان

تمر بالإنسان أحداث في حياته يكون فيها إيمانه محل اختبار حقيقي، وترتقي هذه الابتلاءات لدرجة أن أولي العزم من الرسل فقط هم الذين يتجاوزونها.

تأمل موقف أولي العزم من الرسل ﷺ:

إبراهيم عليه السلام - رد جبريل، وهو في المنجنيق.

موسى عليه السلام - ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

محمد ﷺ - ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ عندما وطئت أقدام جواله قريش فوهة غار ثور.

وتأمل موقف هؤلاء الرسل ﷺ:

لوط - ﴿لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْىءَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ عندما داهم منزله الفساق من قومه بحضور الملائكة.

يوسف عليه السلام - ﴿أذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عندما خرج أحد السجينين معه.

زكريا عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ مِّمَّا تَكْتُبُ وَإِنِّي نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ عندما بشرته الملائكة ببيحي.

وللإمام جعفر الصادق عليه السلام حديث مهم عن تشغيل الإيمان لدفع القلق والخوف استنباطاً من القرآن العظيم، حيث يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في أحد مباحث تفسير الاستعاذة:

«والحق سبحانه وتعالى، يريدك عندما تقرأ القرآن، أن تصفي نفسك له سبحانه وتعالى، وهو جل جلاله يعلم مكايد الشيطان ومدخله إلى النفس البشرية، وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الإيمانية، فيأتي القرآن على فطرة فسدت، فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية، ولكن إذا استعدت بالله، فقد استعدت بخالق، فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك، ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحاً لصفاءات الإرسال سامعاً لكلام الله؛ لأن الله هو الذي يتكلم، فالقرآن ليس كلام القارئ له، ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق عليه السلام أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم بعد تصنيفه لمفزعات الحياة عند الإنسان، هي الخوف والغم والحلم والضر وزوال النعمة:

«عجبت لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهُمْ شُؤٌّ﴾. وعجبت لمن ابتلي بالضر، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّى مَسَّيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّ﴾. وعجبت لمن ابتلي بالغم

كيف لم يفرع إلى قول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
 فقد سمعت الله بعده يقول: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾
 وعجبت لمن أضر، ولم يفرع لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول: ﴿فَوْقَهُ اللَّهُ سَعَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾.

وأنت مادمت في معية خالقك لا يجروا الشيطان أن يذهب إليك أبداً، والتوكل على الله - عز وجل - في دفع الضر وجلب النفع هو في الحقيقة خلاصة الإيمان، تأمل: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَنْبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾.
 وكأن كل الهدى هو في التوكل على الله تعالى، وفي قصة بقرة بني إسرائيل ملحظ إيماني عظيم، فالبقرة أصلاً كانت لرجل صالح من بني إسرائيل حضرته الوفاة، وله ولد واحد لم يبلغ الرشد، وليس له أحد يثق فيه يودع هذه البقرة عنده، فاستشار زوجته المؤمنة، فأشارت عليه أن يستودعها الله - عز وجل - ويرسلها في الفلاة، فتوكل على الله وفعل، ثم إنه توفي، وبعد مدة وعندما بلغ الابن سن الرشد سأل أمه إن كان أبوه قد ترك شيئاً فتذكرت البقرة فقال: أنى لي أن أجدها؟ فقالت: إن أباك قد توكل، فاسترعاها، فتوكل واطلبها ففعل، وذهب إلى الفلاة يبحث عنها فوجدها، وعندما دخل بها المدينة إذا أوصافها تنطبق تماماً على أوصاف البقرة المذكورة لبني إسرائيل في سورة البقرة؟ لكشف جريمة القتل، وفاوضه على شرائها، وكان يستشير والدته، فأدرت حكمة الله في هذه البقرة، وقالت له: لا تبعها عليهم إلا بملء جلودها ذهباً، ففعل وقبلوا. إذا استطاع الإنسان أن يبني إيمانياً قوياً راسخاً، فلا بد أن يوظفه في إدارة شؤون حياته؛ دفعا للضر وجلباً للنفع وراحة لقلبه وسكينته في النفس، وعطاء لمجتمعه وتضحية له.

الصلاة
تجديد عقد الإيمان

8

الصلاة.. تجديد عقد الإيمان

قال النبي ﷺ: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم).

يتعرض البناء الإيماني لمواجهات مستمرة يتبناها الشيطان، فهذه وظيفته في الحياة، ويبدو أن من طبيعة الحياة الدنيا أن يظل هذا الصراع والمواجهة قائمة، وربما أن وجوده شرط لاستدامة الحياة.

وظيفة الصلاة الكبرى من وجهة نظري هي تجديد عقد الإيمان (صيانته) وذكر الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ومن يتدبر سورة الفاتحة فسيفهم المقصود بشكل واضح. ولتتدبر هذا الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سألت، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدي عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدي عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سألت، فإذا قال: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبي ولعبي ما سألت).

الذي يظهر أن الإنسان في صلاته يرتفع - بفضل الله ومنتته - ليصبح طرفاً في عقد الإيمان مع ربه - عز وجل - لدرجة أن الرب سبحانه يفضل بتوزيع بنود العقد بالتساوي، كما تفعل لو ذهبت لتوقيع عقد مهم من التجميل والاستعداد، فإن الرب

تبارك وتعالى يرشدك حتى للهيئة التي يجب أن تكون عليها حال ذهابك لتجديد عقد الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يتوقف قليلاً بعد كل آية، ويقول: أسمع جواب ربي. تأمل الآية الكريمة التي قسمها الله تعالى بين ذاته العلية وبين عبده: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِيبُ﴾ على العبد أن يخلص العبادة -تقديم إياك للتخصيص والتجريد- ومن الرب العون، وهنا خاطرة لطيفة من الشيخ محمد متولي الشعراوي عن اقتران هذين (البندين) فيقول رحمه الله:

«إن في ذلك إشارة إلى أن تخصيص الرب بالعبودية سيثير صراعاً في الكون يتطلب معونة الله على تجاوزه».

لاحظ حساسية المواجهة وصعوبتها مع الشيطان، فهي تتطلب أن يجدد عقد الإيمان خمس مرات في اليوم والليلة وثلاث مرات على الأقل في حالة السفر والحاجة. سأضع تحت نظر القارئ ثلاثة اقتباسات عن الصلاة كتبها ثلاثة مسلمين أوروبيين: الأول: مسلم أوروبي بالولادة، ومن أسرة مسلمة عريقة هو علي عزت بيجوفتش رئيس دولة البوسنة السابق رحمه الله.

والثاني: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن اليهودية هو محمد أسد رحمه الله.

والثالث: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن النصرانية هو مراد هوفمان وفقه الله.

- علي عزت بيجوفتش في كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب):

«الصلاة ليست مجرد تعبير عن موقف الإسلام، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم، فالصلاة تعلن أمرين:

أولهما، أنه يوجد هدفان إنسانيان أساسيان. وثانيهما، أن هذين الهدفين - على الرغم من انفصالهما منطقيًا - يمكن توحيدهما في الحياة الإنسانية، حيث إنه لا صلاة من دون طهارة ولا جهود روحية من دون جهود مادية واجتماعية تصاحبها. إن الصلاة أكمل تصوير لما نطلق عليه «الوحدة ثنائية القطب» في الإسلام. ونظرًا لما في الصلاة من بساطة، فإنها قد اختزلت هذه الخاصية إلى تعبير تجريدي، وأصبحت بذلك المعادلة أو «الشفيرة» الإسلامية.

الصلاة في الإسلام باطلة من دون وضوء، بينما في الدين المجرد يمكن أداء الصلاة مع وجود (القذارة المقدسة) التي عرفتها بعض نظم الرهينة في كل من المسيحية والهندوسية، فالرهبان الذين يتجنبون النظافة يشعرون شعورًا دينيًا أصيلاً أن إغفال البدن - بل الإهمال المتعمد لنظافته - يقوي العنصر الروحي في الصلاة. وينطلق هذا المنطق من افتراض أن الصلاة من حيث المبدأ التي قامت عليه، ستكون صلاة أصدق إذا «تخلصت» من أي إضافة أو عناية بالبدن. فكلما قل لحضور البدني زاد التأكيد على الروحي.

يشكل الوضوء والحركات في الصلاة الجانب العقلي فيها، ووجود هذا الجانب لا يجعل الصلاة

قاصرة على جانبها الروحي المجرد، وإنما يضيف إليها النظام والصحة معاً، فهي ليست تأملاً صوفيّاً فحسب، بل نشاطاً عمليّاً أيضاً».

- محمد أسد في كتابه (الطريق إلى الإسلام):

يتحدث محمد أسد عن عيشه في بيت أحد أقاربه في مدينة القدس، عام ١٩٢٢م وفي معرض حديثه أشار إلى جار له في البيت، يطلق عليه لقب "الحاجي" له فناء كان يؤجر فيه الحمير لحمل الأثقال، فقال:

«وكان يجمعهم «أي الجار» مرات عدة في النهار للصلاة، وكانوا يؤدونها في الخلاء إذ لم يكن المطر منهمراً بغزارة: كانوا يقفون جميعاً في صف طويل واحد، وكان هو إمامهم. كانوا كالجنود في دقة حركاتهم - ذلك أنهم كانوا ينحنون معاً في اتجاه مكة، ثم ينهضون ثانية ليركعوا من ثم، وتلمس جباههم الأرض، كانوا يتبعون كلمات قائدهم الخافضة، وكان يقف بين الركوع والسجود حافي القدمين على سجاده المعدة للصلاة، مغمض العينين، مكتوف الذراعين فوق صدره، محركاً شفثيه دونها صوت، وشارداً في استغراق عميق: لقد كان في مكثك أن ترى أنه كان بصلي بروحه كلها. والحق أنه قد أزعجني أن أرى مثل تلك الصلاة العميقة مقترنة بحركات جسمانية آلية، فسألت

«الحاجي» ذات يوم، وكان يفهم الإنجليزية قليلاً:
«هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له
احترامك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون
من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه، وأن يصلي إلى
الله بقلبه؟ لم حركات جسمك هذه كلها؟».

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت بالندم
وتبكيّت الضمير. ذلك أنني لم أكن أنوي أن
أجرح شعور الشيخ الديني. ولكن «الحاجي» لم
يبدُ عليه قط أمارات الاستياء، لقد فتر فمه عن
ابتسامة، وأجاب:

- «بأي طريقة أخرى، إذا تحب أن نعبد الله؟ ألم
يخلق الجسد والروح معاً؟ وإذا كان هذا كذلك
أفلا يجب أن يصلي الإنسان بجسده، كما يصلي
بروحه؟ اسمع، سأفهمك لم نصلي نحن المسلمين
كما نصلي؟ إننا نولي وجوهنا نحو الكعبة بيت
الله الحرام في مكة، مدركين أن المسلمين كلهم،
حيثما كانوا مولون وجوههم نحوها، وأننا
كجسم واحد، وأن الله هو محور تفكيرنا جميعاً،
نحن نقف أولاً مستقيمين، ونقرأ شيئاً من
القرآن الكريم، ذاكرين أنه كلمة الله أنزلها على
الإنسان؛ كيف يكون مستقيماً رصيناً في الحياة.
ثم نقول: الله أكبر، مذكرين أنفسنا بأنه ما من
أحد يستحق أن يعبد إلا هو، ونركع لأننا نعدّه

فوق كل شيء، ونسبح بعزته ومجده وبعد ذلك نسجد على جباهنا؛ لأننا نشعر بأننا لسنا تجاهه إلا من العدم والتراب، وأنه هو الذي خلقنا، وهو ربنا الأعلى، نرفع وجوهنا عن الأرض، ونبقى جالسين، داعين إليه أن يغفر ذنوبنا، وأن يتغمدنا برحمته، ويهدينا الصراط المستقيم، ويهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض، ونلمس التراب بجباهنا تجاه عزة الواحد الأحد وعظمته. وبعد ذلك نستوي جالسين، وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته، كما صلى على الأنبياء من قبله، وأن يباركنا أيضاً وجميع من يتبعون سواء السبيل، ونسأله أن يهب لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وفي النهاية ندير رؤوسنا إلى اليمين والشمال قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وبذلك نحيي كل من كانوا من الصالحين، حيثما كانوا، هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علم أتباعه الصلاة في جميع الأزمنة والعصور؛ وذلك كيما يسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين - وهذا هو معنى «الإسلام» - ويطمئنوا إليه وإلى مصيرهم.

- مراد هوفمان في كتابة رحلة إلى مكة (ص ٥٧):

«ربما يمكن القول: إنني كنت قريباً من الإسلام بأفكاري قبل أن أشهر إسلامي عام ١٩٨٠م بنطق الشهادتين متطهرًا، كما ينبغي وإن لم أكن مهتمًا حتى ذلك الحين بواجباته ونواحيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلمًا من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكني لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذريًا، فلا ينبغي أن أكون مسلمًا في تفكيري فقط، وإنما لا بد أن أصير مسلمًا في سلوكي. إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي بوصفي مسلمًا حديث عهد بالإسلام في الخمسينيات من العمر أن أتعلم صلاة الإسلام، وليس من الضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسب الآلي ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟ من المؤكد، على أي حال، أنه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه.. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي، ويدرك معنى ما يقوله عند ما يقول: إنه يؤمن بالله.. وبناءً على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من

وجهة نظري، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون أن تكون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفياً أو في الكتابة إليها ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طول اليوم، ليس محباً لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقاً المعنى الحقيقي لوجود الله، فستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه إلى الله كثيراً.. وبذلك، فقد يصير ما يردده المسلم كثيراً، وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... حقيقة واقعة. كنت حتى في تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية.. ومن ثم، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص.. وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة والركوع والسجود والجلوس على الأرض مستنداً على القدم اليسرى، ورفع الذراعين واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سراً مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى

المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم بوصفه مسلماً دون أن يكون كذلك».

ومن أجمل ما قرأت عن الدلالات الرمزية في الصلاة ما كتبه أحد منسوبي الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية في مجلة الحرس الوطني تحت عنوان: خواطر صائم، وهو الملازم أول (ولعله الآن في رتبة أعلى) الحبابي بن مبارك الحبابي:

«الصلاة لا تأتي في وقت واحد على مكان واحد، بجميع فروضها، بل تمر على جميع مناطق العالم متعاقبة، ومتسلسلة، وفي ذلك التعاقب والترتيب يحيا العالم، ويتجدد. ووقت الصلاة له دورة متعاقبة، تغطي العالم وتوفيه حقه بالتوازن والاكتمال. فهي تمر على يابسه وبحاره، من شرقه لغربه، وفي ليله ونهاره، تتدرج التدرج المحكم الموزون. فلا يمر وقت إلا في بلد أذان أو صلاة، وكأن الصلاة بهذه الحالة موجة تشق طريقها العريض مبحرة تنهض كل موطن تمره، وترفع جناح كل قطاع تغمره. حتى إذا اكتملت هذه الدورة، بدأت من جديد، على النهج نفسه، لتعيد الكرة على العالم مرة أخرى. وهذه الدورة (الموجة) لا يعقبها دمار ولا خراب، بل يعقبها أجر وثواب إن شاء الله. فهي تبدأ بالأذان، وتقتفي بالتهليل والاطمئنان. وهي موجة النجاة. فالسعيد من وافق هذه الموجة

وكان له منها نصيب. والخاسر من فاته الركب، ولم يكن لداعي الله محيياً. إن للمصلين في توافدهم على المسجد إذا حان وقت الصلاة، واصطفاهم الصف، واتجاههم الاتجاه الواحد، لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو بصير.

بل لو تمننا كيف أنهم يلتزمون بعضهم إلى بعض، فتشتبك الأكتاف، وتتوحد النيات، ويتوحد الإمام، ليؤتم به... بعدها ترتفع الأيدي، وتعلن الألسن التكبير: «الله أكبر». ثم تضم الأيدي على الصدور، رابطة أحزمة الأمان، لرحلة الإيمان، التي تخلق في الأكوان، خشوعاً واطمئناناً. رحلة يبدأ فيها الإمام بقراءة أم الكتاب، التي لا تصح صلاة مسلم إلا بقراءتها، وبها يحمد الرب، ويمجّد، ويعظم، والمأمومون من خلف الإمام يتابعون، ويتأملون، ويرجون من الله ما يرجون، حتى إذا أتى آخر السورة وكل تأهب، لتتوحد الكلمة، ويوحد الصوت، ويقولون «آمين»، وكأن الطيور، التي ضمت أجنحتها على الصدور، أنست ربيع قلوبها فغردت، وتحركت أشجانها، فأنشدت كلمتها الصغيرة «آمين» التي ترجو منها عطاء رب العالمين العظيم. وهي كلمة تنبض بها قلوبهم، وتنشدها ألسنتهم، وتخرجها آمالهم. إنها لعبرة كلمة (آمين)، هي تسمع من المصلين،

بين الفترة والحين، وهي كلمة قلناها، فهل
وعيناها، وأديناها بخشوع وإخلاص، لنحصل
على رضا رب الناس وقبوله؟»

الشيخ محمد متولي الشعراوي يمثل الصلاة بصنعة تعرض على صانعها، فيقول:

«إن الإنسان (صنعة الله عز وجل) تعرض خمس
مرات يومياً على صانعها (الخالق عز وجل) فمن
يؤدي الصلاة حق أدائها لا بد أن تستقيم حياته».

و الجدير بالملاحظة أن الإنسان في أثناء صلاته نهى عن التشبه بالحيوانات
في مختلف الصور: نقر الغراب، إقعاء الكلب، تلفت الثعلب، بروك البعير،
افتراش السبع.

لا شيء مطلقاً يفعل فعل الصلاة في إعلاء شأن الإنسان، في كتاب (مهوض
التفكير) فطن المفكر الإسلامي د. عبدالكريم بكار في سياق مختلف إلى حقيقة مفارقة
الحيوانية وعلاقتها بتعميق الإنسانية، فقال:

«كلما تقدم الإنسان بإنسانيته فارق الحيوانية».

الصوم.. شاحن وكابح

في شهر رجب ١٤٢٦ هـ زارني رجل أعمال كبير من أثرياء العالم؛ لإنجاز عمل مهم في إحدى مدن القصيم، وبعد الاتفاق على خطة معالجة الموضوع، طلبت منه تحديد موعد لاحق خلال أسبوعين؛ لمناقشة ما تم إنجازه، فاعتذر بأن جدول أعماله في شعبان لا يسمح بذلك بسبب أن مديري قطاعاته المتعددة ينهكونه في هذا الشهر؛ لعلمهم أنه لا يستجيب خلال رمضان لطلب الاجتماعات، حيث يُخصّص في ذلك الشهر وقتاً أكبر للعبادة.

وقد لاحظت خلال ثلاثين عاماً من العمل في قطاع البلديات أن أصحاب المشروعات والأعمال يخفّ شحّهم وحرصهم في هذا الشهر عن غيره.

وعلى صعيد مشابه عانت إحدى قريباتي صداعاً عنيفاً متصلاً أسابيع عدّة، لم تفلح معه أدوية الصداع التقليدية، وهذا دعانا إلى طلب مشورة طبيبة من مركز متقدم، فتوجهنا إلى مدينة الرياض، وراجعنا استشارية سعودية، وبعد الاستماع للشكوى وإجراء بعض الفحوص الروتينية ظمأنتنا، وقالت: أولويتنا الأولى هي كسر هذه الدوامة (breaking the cycle) ثم وصفت لنا علاجاً مختلفاً تماماً عن علاجات الصداع التقليدية، غرضه فقط كسر هذا الداء المستمر.

هاتان الحادثتان ذكّراني بشهر رمضان، فبعد مغادرتنا هذه العيادة، وبعد نجاح خطة علاج هذه الدكتورة، والله الحمد بدأت أستحضر دورة الحياة وضرورة كسرها، كلما هلّ علينا شهر رمضان، إنه يشبه الدواء الطبيعي الرائع للذي يدور بلهف حول شهواته الدنيا.

والحقيقة أنه ليس في الإسلام أمر ينهى عن العمل في شهر رمضان أو التقليل منه، بل إن حوادث كبرى للأمة وانتصارات حاسمة تمت في هذا الشهر، ولكن المهم أن نفرق بين أعمال عظيمة قصد بها وجه الله تعالى والنفع العام وأعمال ذات نفع فردي يرسخها الشح.

أعتقد أن إحدى وظائف شهر رمضان الجليلة هي تهدئة الاندفاع البشري نحو المطالب الدنيوية، إنه يشبه الكابح (الفرامل) في السيارة، فعندما تزيد سرعة السيارة عن السرعة الآمنة لا بد من كبح يعيدها إلى السير بأمان، وهذا أحد الأدوار المهمة التي يعالجها هذا الشهر العظيم كل عام، إضافة إلى كبح الشهوات ذات الطابع البيولوجي في الإنسان، وهي مسألة واضحة في الصوم، ولكن الملاحظ هو ذلك الهدوء النفسي وانخفاض حدة السعار المادي الذي يفسد حياة الناس.

في كل عام يضغط رمضان كوابحه على إيقاع الحياة؛ ليعيد توجيهها نحو أهدافها السامية دون أن يحرم عمارة الأرض من نفع الإنسان.

رمضان منارة لإعادة توجيه دفة قارب النجاة، إنه علامة مرجعية واضحة في طريق الحياة تؤكد إعادة الحسابات والبحث عن الاتجاه الصحيح.

وضعت الحضارة الغربية منذ نجاح حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، وما أعقب ذلك من نجاح كبير للرأسمالية، الإنتاج بوصفه قيمة عليا وهدفاً أسمى، وأصبح مرجعاً للإنسان؛ ليقاس به نجاحه وإنجازاته.

ثم بدأ حكماء الغرب يراجعون هذا التوجه، وقد ظهرت كتابات كثيرة تحث كل إنسان على مراجعة مستمرة لأولوياته في الحياة وعدم التركيز على الحياة المهنية مثلاً أو جمع المال أو تحصيل مركز اجتماعي مرموق، وقد كتب في هذا الموضوع عدد كبير من الكتب، ربما يكون أحد أشهرها كتاب ستيفن كوفي «الأهم أولاً» وهو يحكي بشكل

تراجيدي قاسٍ عن عدد كبير من الرجال والنساء في الغرب الذين ركزوا على حياتهم المهنية، ونسوا الجوانب الأخرى في الحياة، ثم أفاقوا في وقت متأخر.

نعود إلى رمضان، إنه دورة تدريبية لضبط الاتجاه وتقوية الأهداف وتخفيف سرعة إيقاع أحداث الحياة؛ حتى يمكن التعرف إليها ومراجعتها، فربما أن الحياة إذا كانت تسير بأسرع مما نستطيع إدراكه، فهي تفقدنا القدرة على فهمها وتصحيح الانحراف في الاتجاه، وكما قال حكيم لأحد الباحثين عن السعادة:

«تمهل قليلاً؛ إن السعادة تحاول اللحاق بك».

وقد بالغ بعض أفراد مجتمعنا بتقمص طريقة الحياة الغربية الموجهة نحو الإنجازات والنتائج والنمو بطريقة لا توازن فيها، فاشتبهت حالنا بطريقة الحياة الغربية، كمن وُضِعَ على سرج فرس جموح دون أن يسلم اللجام، وهو لا يجيد ركوب الخيل، والنتيجة قلق وخوف وسعي لاهث دون أي اتجاه، وربما سقوط قاتل.

رمضان يسلم لجام الفرس للفارس؛ ليعيد توجيه الحياة، ويضبط سرعة إيقاعها.

رحلة الحج

الحيثية الأساس للقيام بجميع التكليف الشرعية الإسلامية هي: الإيمان بالله والالتزام بأوامره ونواهيه، وقد فطن الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - إلى أن خطاب التكليف في القرآن غالباً ما يأتي بفعل محذوف الفاعل، مثل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾

ما يوحي بأن هذا التكليف ناتج عن عقد الإيمان، وليس له معنى في ظل غياب الإيمان.

فمعلوم أن غير المؤمن غير مكلف، ومع ذلك فإن التكليف الشرعية في الدين الإسلامي لها حكم بالغة الوضوح ومناقبها الدنيوية ظاهرة والصلاة والزكاة والصيام أوضح مثال.

ولكن كثيراً من دلالات وحكم الحج والعمرة مازالت مجالاً واسعاً للبحث والتأمل، فعند بعض غير المسلمين هي غير مفهومة إطلاقاً، بل تطرق بعض الغربيين إلى اعتقاد أنها إرث وثني.

وعندما سئل بعض علماء الأمة عن حكمة الطواف مثلاً، كان الجواب أن الطواف فحص للإيمان، حيث يطلب من المؤمن أن يقوم بعمل يصعب عليه فهم الحكمة منه، وإنما هو امتثال لأمر الله - عز وجل - وهذا جواب رائع، وينطبق ذلك على معظم مناسك الحج، حيث إن المؤمن يقبل حجراً، ويرجم آخر لا يبعد عنه سوى مسافة قليلة.

غير أن من واجب المؤمن أن يطيل النظر والتدبر والتفكير في كون الله - عز وجل - ونواميسه، وكذلك في أوامره ونواهيه؛ لعله يفهم بعض أسرار العبادات الشرعية دون أن يؤثر ذلك في رضاه وامتناله لأوامر ربه.

استغرقت مدة طويلة في تفكير عميق حول الدلالات الرمزية في الحج والعمرة، وسأضع هذا الاجتهاد تحت نظر القراء الأعزاء، فقد يكون في بعضه فائدة.

تنقسم مخلوقات الله من حيث التكليف إلى قسمين رئيسيين: مخلوقات اختارت ألا تختار، وإنسان اختار أن يختار، يقول الرب عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. فقد أدركت جميع المخلوقات بفطرة الله التي فطرها عليها، الفرق الكبير بين التحمل والأداء، فقد تصدر وعداً، وتعجز عن تنفيذه، وقد تحتمل أمانة، ثم تتعد همتك عن إنجازها، أما الإنسان فقد تصدى للأمانة، واختار أن يكون مختاراً لحكمة أرادها المولى - عز وجل - وعلى هذا الأساس نحن نعرف أن جميع مخلوقات الله في هذا الكون تسير وفق قوانين دقيقة منتظمة، فالشمس والقمر والكواكب تطوف حول بعضها في مواعيد دقيقة جداً تسبح بحمد ربها، ولا تتركب أي معصية، فليس لها إرادة أو قدرة على ذلك إلا بإذن ربها في حالات استثنائية، فلم يسبق للشمس أن تأخرت عن الشروق في مواعدها المحدد، سواء على بلاد مؤمنة مطيعة أو كافرة فاجرة. أما الإنسان فقد وهب إرادة الاختيار، وبهذا يرتقي عندما يطيع ربه، ويعيش وفق منهجه إلى مرتبة لا يرتقي إليها أي من مخلوقات الله؛ لأنه عمل ذلك بإرادته التي منحها الله له، فقد خلق الإنسان قادراً على الطاعة وعلى المعصية وفق مشيئة الله تعالى.

من يتدبر رحلة الحج من بدايتها يكاد يرى فيها إعلاناً من الإنسان وعزيمة على أن يسير في الحياة وفق منهج الله لدرجة تشابه مخلوقات الله غير المختارة. فالحج يعمق الإيمان بطريقة مكثفة، حين يرسخ نزعة التسليم الذي يجسد لب الإيمان وجوهره، ذلك أن عقلنة الإيمان في كل مسألة جزئية من شأنه إضعاف الإيمان.

دعونا نتبع رحلة الحج من بدايتها؛ لننظر فيما يمكن أن نفهم من دلالاتها العظمى، غير ما هو معروف من تحقيق العبودية لله والمتابعة لنبيه وتحصيل المنافع:

الإحرام: فعندما يلبس الإنسان ثياب الإحرام التي تكاد تقتصر على ما يستر عورته، وما قبح من جسده يعلن تخليه عن أحد أهم ما يميزه عن مخلوقات الله الأخرى التي لم تعرف ثقافة الملابس، لا من الجمادات ولا من النبات أو الحيوانات، ويؤيد هذا آية الأعراف: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تِكْمَ وَرِيْشًا وَلِبَاسَ الْتَقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾. فعند الإحرام يعلن الإنسان عن تلييته نداء الله ورغبته في التماهي إلى حد كبير مع مخلوقات الله الأخرى، ويعزز هذا الشعور أنه يحظر عليه التعرض لصيد البر أو عضد الأشجار، ولا يمس طيباً، ولا يزين شعره، فيعلن السلام العام مع كائنات الله، في تلبية نداء ربه وحضوره إلى بيته الحرام الذي اختاره الرب ليكون قبلة للمؤمنين.

الطواف: لو تأملت مخلوقات الله صغيرها وكبيرها، الأجرام السماوية، وما داخل النواة، ستجد أنها كلها تطوف حول محور معين، فكواكب المجموعة الشمسية تدور بانتظام حول الشمس، والشمس وكواكبها تدور حول مجرة أخرى، وهكذا.

عندما نطوف حول الكعبة، فكأننا نشابه بطاعتنا للرب - عز وجل - المخلوقات غير المختارة في أدائها لواجباتها وانصياعها التام لخالقها - عز وجل -، ومما يضاعف هذا الإحساس لباس الإحرام والتخلي عما يميزنا بوصفنا بشراً من ملابس وأغطية الرأس.

ويثبت الدعاء الذي نستفتح به طوافنا، هذه المعاني العظيمة، والذي ورد عن رسول الله ﷺ وصححه بعض العلماء: ((اللهم، إيماناً بك ووفاءً بعهدك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ)).

ومسح الحجر الأسود وتقبيله في أثناء الطواف يشبه المبايعة على التسليم والطاعة.

السعي: وإذا أردنا أن نكمل فهم هذه التكاليف، فنقول: بعد أن يطوف الإنسان، ويعلن عملياً التزامه بطاعة ربه التزاماً يشابه طاعة غير المختار من المخلوقات ينتقل إلى السعي بين الصفا والمروة، وهو في نظري شعيرة ترمز إلى الكفاح لتحصيل ضرورات الحياة، حيث يمثل الماء ركن الحياة الأول والسعي بين الصفا والمروة يفسر على أنه متابعة لهاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم إسماعيل عليه السلام في أثناء بحثها عن الماء لها ولطفلها، وهو حركة ترددية، وليست دائرية كما في الطواف. ويمكن أن يفهم، وكأنه الركن الثاني للحياة البشرية، فهو سعي لتحصيل ضروريات الحياة، ففيه كفاح وسعي وجهد، وجاء أيضاً طلباً للماء الذي جعل منه الله - عز وجل - كل شيء حي، وعندما تسمح ظروف الحياة يركض الإنسان ركضاً (كما فعلت هاجر في بطن الوادي بين العلمين الأخضرين الآن) لاحظ هنا أن السعي لا يشترط له الطهارة؛ ربما لأنه يرمز إلى العمل الدنيوي.

وتذكر أن المسلم مأمور بأن يقف بين كل شوطين على الصفاء والمروة، وينظر إلى الكعبة، ويدعو، ماذا يمكن أن تفهم من هذا؟

التأكيد على ضرورة الالتزام بمنهج الله - عز وجل - في تحصيل ضرورات الحياة وألا يلهيك السعي في تحقيق منافعك عن ذكر الله عز وجل.

الحلق أو التقصير: وتكتمل الصورة بشكل رمزي لا نظير له، عندما نفرغ من السعي (ننجح في تحقيق المطلوب) فإننا نحلق رؤوسنا تعبيراً عن التواضع، إن نظرة تأملية إلى شخص طأطأ الرأس لحلاق تشي بكثير من الاعتراف بالمساواة والتواضع.

أي معانٍ عظيمة في الحج والعمرة!؟

إن الطواف والسعي والحلق تختصر رحلة الإنسان الظاهرة (رحلة الفلاح) في هذه الدنيا الفانية، لاحظ أن بيت الله (الكعبة) الذي بوأه الله لإبراهيم عليه السلام هو

في بعدي العرض والطول، وهو بذلك خارج الإرادة البشرية، أما البناء الذي رفعه (البعد الثالث) إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فهو داخل في التكليف التزاماً وفسقاً، وقد يتعرض عبر تاريخ البشر للهدم أو التصدع.

الرقم ٧: يلاحظ استخدام رقم سبعة في الطواف والسعي، وهذا الرقم ومضاعفاته يرمز للكثرة والاستمرار، تدبر قول الله - عز وجل - : ﴿إِنْ سَأَلْتَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

وكان الرسول ﷺ يقول: (لو كنت أعلم أن لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر الله لهم لاستغفرت لهم) ما يدل على أن استخدام ٧ / ٧٠ / ٧٠٠ في القرآن الكريم هو دليل على الكثرة غير المحدودة، أو كما يعبر عنها في الرياضيات باللانهاية (∞).

أشار الرقم ٧ تساؤلات عدة، فهو رقم تتفاءل به شعوب الأرض وفي دين الإسلام يتكرر الرقم ٧ في أشواط الطواف والسعي ورمي الجمار، وفي كثير من الأذكار، وأيام الأسبوع سبعة والسموات سبع والأرضون سبع، وفي القرآن وردت سبعة ومضاعفاتها:

﴿...إِنْ سَأَلْتَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾

﴿حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ﴾

تأملات

قد يكون الرقم سبعة رمزاً على الاستمرار، وليس المقصود العدد نفسه.

قارن ما يأتي: في الصلاة تتجلى أبهى صور الإنسانية وأرقاها، وأعظم تمايزها عن بقية مخلوقات الله في الملابس «الزينة» والنظام «الاصطفاف» والترفع عن حركات الحيوانات.

وفي الحج يؤمر المؤمن بالتخلي عما يميزه عن بقية مخلوقات الله، ويتهاهى معها في التخفف من الملابس والدوران أو الطواف حول شيء ثابت ومسح الجهادات وتقبيلها، وما إلى ذلك، وكأنه يتخلى عن النعمة؛ ليعيش مع المنعم، وبذلك تتحقق عبودية الإنسان لربه في جانبه الإنساني وجانبه الحيواني.

الحضارة والثقافة:

يحاول الدكتور علي عزت بيجوفيتش في مشروعه الفكري الكبير (الإسلام بين الشرق والغرب) أن يضع حداً فاصلاً بين الثقافة والحضارة، وبحسب الدكتور علي عزت، فالثقافة تبدأ بتمهيد سماوي، ويدخل فيها الدين والفن والأخلاق والفلسفة أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد أو التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة، ويستمر الدكتور علي عزت قائلاً:

«الثقافة هي تأثير الدين في الإنسان، أو تأثير الإنسان في نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء في الطبيعة أو العالم الخارجي».

ويتملى كتاب الدكتور علي عزت (الإسلام بين الشرق والغرب) بالأمثلة التي توضح الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة، ويخلص إلى أن الثقافة موجهة للإنسان في حين الحضارة موجهة للمجتمع.

وكما يعلم أي متتبع لمشروع الدكتور علي عزت -الذي أثار كثيراً من ردود الأفعال في أوروبا وغيرها، وحصل بموجبه على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام عام ١٤١٣هـ- أن محور فكرة المشروع تدور حول ثنائية القطب في الإسلام، بين الثقافة والحضارة، وتعدّ الصلاة أكمل تصوير لما يمكن أن يطلق عليه وحدة ثنائية

القطب في الإسلام، ففي الأديان الأخرى المجردة تؤدي الصلاة دون وضوء، بل مع وجود ما يسمونه القدارة المقدسة، أما في الدين الإسلامي فالصلاة ثقافة باتصال الإنسان بربه وحضارة بتطهره ونظافته، وهكذا يمكن أن نقول في عبادات الإسلام الأخرى.

وقد لاحظت في أثناء قراءتي للقرآن الكريم أن الخطاب في شأن الحج يأتي باستعمال كلمة الناس على صيغ عدة:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾

ويضاف إلى ذلك بعض الآثار في السنة النبوية، كقوله ﷺ: (الحج يوم يحج الناس...).

وإذا سرنا مع تحليل الدكتور علي عزت بيجوفيتش، فإن الثقافة تتوجه للإنسان فرداً بالدرجة الأولى، أما الحضارة فهي تتوجه للمجتمع، فهل يمكن أن نفهم، أن الصلاة فعل ثقافي بالدرجة الأولى والحج فعل حضاري؟

ويسند هذا الاستنتاج إمكانية أداء الصلاة بشكل منفرد، أما في الحج فلا معنى له إلا مع الناس.

الذكر
برمجة ذكية للإيمان

٨

الذكر .. برمجة ذكية للإيمان

((إذا شاهدت في إخلاصك الإخلاص، فقد احتاج إخلاصك إلى إخلاص)).

حكمة صوفية

شاع في نهاية القرن العشرين في كتب تطوير الذات، وبخاصة بحوث المعالجين النفسيين استعمال ما يطلقون عليه التوكيدات affirmations، ومهمتها الأساس تصحيح اعتقاد الإنسان عن نفسه، وهي تتبع من مسلمة مهمة لدى علماء النفس تقول: إن ما يشعر به الإنسان هو ما يفكر فيه، ومن ثم فإن أمكن برمجة عقله الباطن بأفكار إيجابية، فإنه سيشعر بشكل إيجابي، وبحسب عشرات الكتب التي قرأتها، فإن الإنسان إذا واظب على قراءة توكيد معين، مثل: (أنا واثق من نفسي وقدراتي) وكرر هذه العبارة كل صباح ومساءً عدداً كبيراً من المرات، فإنه يصبح بالفعل واثقاً من نفسه وقدراته. ويفسرون ذلك بأن العقل الباطن الذي يتولى إدارة مشاعر الإنسان إلى حد كبير (بحسب زعمهم) يتبنى هذا التفكير الذي يمليه التوكيد السابق، ويبدأ الإنسان فعلاً يشعر بالثقة بنفسه وقدراته. ويؤكدون أنه كلما زاد تكرار العبارة زاد رسوخها بشرط أن تكون عبارة إيجابية بمعنى أنك لا تقول: (أنا لا أشك في قدراتي)، بل تقول: (أنا أثق بقدراتي)، لأنه بحسب رأيهم، فإن العقل الباطن يدرك الصور فقط، ويتعرف إليها، ولا يقرأ العبارات، ومن ثم فالنفي ليس له معنى.

وكما يعلم معظم من يقرأ في علم النفس أن العقل الباطن بوصفه نظرية لم يتم التحقق منها بشكل قاطع، ولكن تبنيها يساعد على فهم كثير من أسرار النفس الإنسانية، ومن ثم فمن المفيد الإبقاء عليها، وتفعيلها بشكل ذكي في محيط النفس الإنسانية. وإذا كان من المعروف أن أول من افترض وجود العقل الباطن هو «سيجموند

حتى في الصلاة نسبح ربنا - عز وجل - في سجودنا، ثم نستغفره في الجلسة بين السجدين، هل ثمة حكمة؟

دعونا على سبيل المثال نحاول التعرف إلى التسبيح والاستغفار. التسبيح في أصله اللغوي هو (س ب ح) بمعنى (نزه) ومن ثم فتسبيح الرب سبحانه هو تنزيهه عن النقائص وتمجيده بالكمال المطلق.

وقد جاء في القرآن بألفاظ عدة:

سبحان - سَبَّحَ - يَسْبُحُ - سَبَّحَ.

وقد ورد بهذا الترتيب نفسه أيضاً في القرآن، فسبحان بمعنى أن الله سبحانه منزّه قبل أن يوجد من ينزهه.

وَسَبَّحَ تعني أنه مضت سنة المخلوقات على التسبيح، وَيُسَبِّحُ تعني أن مخلوقات الله ما زالت تُسَبِّحُ.

وَسَبَّحَ إذا أمر إلهي لمحمد ﷺ ولمن اتبعه بأن يسبحوا، فالترتيب منطقي جداً.

الاستغفار أصله (غ ف ر) ومعناه لغوياً: الستر والتغطية، ومن ذلك كما في لسان العرب غفر الله ذنوبه أي سترها. ويفيد في المصطلح محو الذنوب.

وقد لفت نظري تعريف للمغفرة أورده الدكتور جون جري مؤلف كتاب: (كيف تحصل على ما تريد وتحب ما لديك) وهو أيضاً مؤلف الكتاب الشهير (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) يقول الدكتور جري: الغفران هو التخلص من نزعتنا لتحميل الآخرين مرورنا بالأزمات في هذا العالم.

هل من سر خلف ارتباط التسبيح بالاستغفار في حياة المؤمن؟

لنأخذ المثال الآتي:

تصور أنك تبني في منزلك مظلة لسيارتك مجاورة لمنزل جارك، وفي أثناء العمل مر عليك الجار وطلب إليك أن تتنبه إلى تثبيت الحديد في أثناء الإنشاء احتياطاً لأي عاصفة محتملة. لم تهتم بما طلبه الجار، وهبت عاصفة في المساء، وسقط جسر من الحديد على منزل جارك، وهشم سيارة الجار، ما فرصتك في أن يسامحك الجار مادياً ومعنوياً؟ الإجابة تعتمد بشكل كبير على حالة الجار المادية والنفسية.

إذا كانت السيارة مشتراة بالتقسيط، وتشكل نسبة كبيرة من دخله الشهري، وليس لديه رصيد يسمح بشراء سيارة أخرى، وفرصتك في المغفرة أقل.

إذا كان الجار صعب المراسٍ وقاسياً، وفرصتك في التسامح أقل وأقل.

أما إن كان الجار غنياً جداً، يملك ثروات هائلة وكرماً جداً وودوداً لم يؤثر الحادث في حياته في نفسه أو أولاده، فإن فرصتك هنا في التسامح والمغفرة شبه مضمونة.

ولله - عز وجل - المثل الأعلى، فعندما نقول: «سبحانه» نزهه الرب عن الاحتياج إلى أي مخلوق أو الشح أو البخل وخزائنه لا تنفذ، ولا تنقصها الذنوب أو المعاصي إذاً من المناسب جداً للعبد المذنب أن يسبح الرب - عز وجل - ويستغفر، ولسان حاله يقول: يا من لا تضره معصيتي، ولا تنفعه طاعتي، ولا ينقص من ملكه شيء بسببي، يا رحيم، يا ودود، يا قريب، يا مجيب، اغفر ذنوبي، وقريباً من هذا المعنى أورد ابن الأثير في النهاية: (التسبيح فيه نفي النقائص والمعائب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر للذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب تعالى وتنزيهه عن العيوب والنقائص مع الإقرار بنقص العبد وتقديره وافتقاره إلى الله تعالى وإلى ستره ووقايته وغفرانه).

وقدوتنا ﷺ كان يتمثل القرآن في هذا، فيقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

اللهم، اغفر لي.

تأمل أيضاً اقتران التسبيح بالحمد، فأبي نعمة أعظم من كمال الله - عز وجل - وغناه عن مخلوقاته وعن الصاحبة والولد وعدم حاجته سبحانه لولد ولا شريك ولا ولي. تخيل حال الكون وسكانه لو أن القيوم عليه له شركاء أو ولد أو أولياء! وهل أفسد الأمم منذ القدم إلا أن القائمين على أمورها ذوو صاحبة وولد ولهم شركاء وأولياء؟!

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴾

تأمل:

«سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» استفراغ لكل ما يمكن من وحدات القياس. عدد خلقه: عدد. زنة عرشه: وزن. مداد كلماته: مساحة. أما الرضا فهو غير قابل للقياس. «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ألا يشير انتباهنا في هذا الذكر العظيم ارتباط الحول (التحول من حال إلى حال) بالقوة. لتتذكر قانون الفيزياء الراسخ الذي يشترط وجود قوة لأي تحول للمادة.

الدعاء:

ما الوظيفة الحقيقية المنوطة بالدعاء، والمقصود هنا دعاء الطلب، وليس دعاء الشناء، خلق الله الإنسان، وسخر له ما في الأرض أو بشكل أدق كما ورد في الحديث القدسي:

«خلقتك من أجلّي وخلقت الكون من أجلك، فلا تنشغل بما خلق لك عما خلقت له».

تنقسم الظروف المحيطة بالإنسان إلى قسمين رئيسين:

١. قسم يقع تحت إرادته وفي مكنته.

٢. قسم يخرج من دائرة إرادته وإمكاناته.

وإذا تدبرنا سير الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم الأعظم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، يبدو بجلاء أنهم لا يضعون الدعاء في غير موضعه، فموضع الدعاء يتأكد من وجهة نظرنا في القسم الثاني، وهو الظروف والأمر التي ليست في مكنة الإنسان، وأوضح مثال على ذلك أحداث غزوة بدر، فقد استنفذ الرسول صلى الله عليه وآله كل الوسائل المتاحة له بوصفه رسولاً وقائداً ومحارباً، ويتضح من مسار المعركة أن الدعاء جاء بعد استكمال كل الاستعدادات، بل قبيل المواجهة الحاسمة بلحظات، وتدل سير الأنبياء عليهم السلام على سيرة أو سلوك مشابه، ويأتي الدعاء في المسائل المقدور عليها من قبل الإنسان لطلب التسديد والتوفيق وإصابة ما يقع في دوائر النفع الحقيقي للإنسان في دنياه وآخرته.

حاول أخي القارئ، أن تتذكر الأدعية التي تضح بها مساجدنا في رمضان، فستجد أن الدعاء قد حمل ما لا يحتمل، ووضع في غير موضعه، بل قد يقع بعض الدعاة في عبارات تشي بعقائد أهل الجبر، وهو لا يشعر.

كيف نميز بين ما هو في مكنتنا، وما ليس في إمكاننا؟ لا شك في أن هذا أمر ليس باليسير، غير أنه يجب أن يستقر في أذهاننا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن استنفاد الأسباب واجب على القادرين؛ لكي يؤدي الدعاء دوره.

ويبدو أن الدعاء في الأحوال الاعتيادية، وليس المعجزات الخاصة لا ينقل الإنسان من دائرة غير الممكن إلى دائرة الإمكان، ما الذي يعنيه هذا القول؟ تصور أن إنساناً يرغب في إنجاب ذرية، فهل تتوقع له استجابة لو ظل يدعو بالليل والنهار وهو غير متزوج، الزواج مقدمة أساس لحصول الذرية، وهو الذي ينقل الداعي إلى دائرة الممكن، وعلى هذا يمكن قياس الحالات الأخرى.

يؤلمني جداً عندما أسمع أحد أئمة الحرم المكي، وهو يردد في العشر الأواخر من رمضان "اللهم، حرر المسجد الأقصى"، فشعر بخجل عظيم من الرب تبارك وتعالى، حتى إنني لا أؤمن على هذه الدعوة، فهي عندي شديدة الشبه بما يحكى عن اليهود عندما قالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَنَجَلْنَا إِنَّا هَهُنَا قَعْدُونَ﴾.

والحديث عن الدعاء والمساجد لا بد أن يجرنا إلى إسراف بعض أئمة المساجد في تكلف الأسجاع، حتى لو أخرج الدعاء عن مقصده، بل ربما أوقعت الداعي في نقيض مطلوبه.

تأمل أخي القارئ، في بيت الله الحرام، وفي العشر الأواخر من رمضان، وفي دعاء ختم كتاب الله، يدعو إمام الحرم المكي بقوله: «اللهم، ألبسنا به الحلل وأسكننا به الظلل» يقصد القرآن الكريم، والمعلوم عند أي متدبر للقرآن الكريم أن الظلل والظلة تأتي دوماً في سياق العذاب والعقاب والحساب والتخويف، وقد وردت غير مرة:

كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِرِ وَالْمَلَكِ كَةً وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِعَائِنِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾. ولا شك في أن نية الإمام حسنة، ولربما كان يقصد الظلال، ولعل برمجته الذهنية المتجهة نحو الأسجاع قد أفقدته الإحساس بالمعاني، وكثيراً ما تسمع المصلين يؤمنون على هذه الدعوة أو غيرها، ويكونون دون أن يفقهوا معناها، وإنما يأخذهم النحيب والبكاء على الألحان والأسجاع، وقد مر بهم منذ لحظات كلام الرب - عز وجل - الذي لو أنزل على جبل لخشع، وتصدع، ولا يحرك لهم ساكناً.

زمن استباق الخيرات
ويوم الفصل

٩

زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

يمر قارئ القرآن الكريم، بمجموعة من الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى، سيفصل في اختلافات الناس بشكل قطعي ليس في هذه الحياة الدنيا، وإنما بحسب النص القرآني القاطع يوم القيامة، لتتدبر الآيات الآتية:

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.
- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أما في هذه الحياة الدنيا فالأمر الإلهي واضح، وهو استباق الخيرات، بين مختلفي العقائد، وهو ما نصت عليه آيتا البقرة والمائدة، بل ختمت آية المائدة بأننا سنرجع إلى الله، ثم يبتنا عما اختلفنا فيه.

- ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ
جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.
- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ
لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
يَسْبُلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

لا بد أن كل من تربى على عقيدة وتصور للإيمان سيكون في الغالب شديد الالتصاق به والثوق فيه، ومن ثم لا بد من أن ندرك أن من غير المفيد أن نتشاجر حول اختلاف تصوراتنا وعقائدنا، حيث إن هذا لن يؤدي إلى الفصل، فالفصل بين هذه العقائد سيتم يوم القيامة من رب لا يخفى عليه شيء، وهذا لا يعني أن الإنسان الذي اجتهد في بناء إيمانه وتحقيق عقيدة وتصور يثق بهما أن يتخلى عن الدفاع عنها أو أن يترك الدعوة إليها، بل هذا الأمر مندوب، غير أن المطلوب ألا يتعدى هذا الجهد إلى بخر النفس أو إهلاكها، أو قتال الناس وحرمانهم حقوقهم، ويؤيد ذلك أن عقول الناس لا تستطيع الوصول إلى فصل في العقائد، مهما بذلت، ومهما تقاربت هذه العقائد، فلو اجتمع أشعري وسلفي، وكلاهما تحت مظلة ما نسميه أهل السنة والجماعة، وأمضيا سنين في الحوار حول الصفات لخرج كل واحد منهما أشد تمسكاً وقناعة برأيه، ومن ثم فالفصل في العقائد تكفل به الخبير العليم، وأجله إلى يوم القيامة، إذ ما الذي نعمله الآن؟ الجواب نتسابق بالخيرات، وهنا ملحظ في غاية الأهمية، وهو اتفاق عقول البشر على هذه الخيرات، فكل الشرائع السماوية تدعو إلى الصدق، وتحرم الكذب، وتدعو إلى العفة، وتحريم الزنا، وتدعو إلى البر، وتنهى عن العدوان، وهكذا إذاً، فمن يسرف في الجدل حول سلامة معتقده، وخطأ معتقد الآخرين، ويهمل استباق الخيرات، فقد نقل الأمر الإلهي من وقته إلى وقت آخر.

وكذلك من يدلّ على الناس بسلامة معتقده، ويستهيئ بالأعمال الصالحة التي يقوم بها الآخرون، ويجزم أنها ستكون هباءً منثوراً. لا بد من أن قراءة متأنية متدبرة للذكر الحكيم ستجعلنا نعيد النظر في كثير من مسلماتنا حول ما نسميه سلامة المعتقد. وهناك من يرى أن كل من أفرغ وسعه وجهده، وأعمل فكره، وما أعطاه الله من فهم، في الوصول إلى عقيدة ما، واعتنقها دون مكابرة، أو تحقيقاً لمصلحة مرجوة، فهو معذور مأجور، وذاك نهج وسطي يقرب العقول والقلوب، ويحشد الموارد والجهود.